مثال نادر

كان مثالاً نادراً في هذا الشرق للحياة العلمية الخالصة ، وكان مثالاً نادراً للصبر والمثابرة ، وكان مثالاً نادراً لطيبة النفس وحسن السيرة ، فنعيهُ خبر لا يجتزأ بذكرهِ في اخبار الوفيات او في ثنايا الصحف ولكنهُ حادث من حوادث العصر تسير بهِ الانباء وتستخرج منهُ العظات

لا نعرف رجلاً في الشرق الحديث قضى حياتهُ كلها للعلم والتعليم عاكفاً على الدرس بين الكتب والاوراق لا يشغلهُ عنها شاغل من ملاهي الحياة كما انقضت تلك الحياة المباركة التي انطوت اليوم بوفاة الدكتور صروف . ولا نستثني من ذلك الاَّ فرداً او فردين نتمنى لهما طول العمر وتيسير الظروف وحسن الافادة وطيب الجزاء . ولسنا نعرف مجلة في الشرق كلهِ عمرت ما عمرهُ المقتطف وافادت ما افادهُ في نشر المعارف وتنوير الاذهان وتحبيب القراء في العلم والدراسة ، ولسنا نوليهِ غير حقهِ من الثناء حين نقول انهُ كان في حياتهِ المديدة خيراً من مائة مدرسة تعلم طلابها القشور وتعنى بظواهر المعرفة اضعاف عنايتها بالفهم الصادق المفيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولقد كان المقتطف مجلة علم حديث تخص العلوم بمكانها الاول وتعرض للآداب من ناحيتها القريبة الى تحقيق العلم وتجريب العمل ، ولكنها على هذا افادت الادب خير ما افادتهُ مجلة في اللغة العربية ووجهت كثيراً من القرائح الى قراءتهِ والشغف بهِ والتوسع فيهِ . وكاتب هذه السطور يذكر انهُ لم يعرف اسم المعري الاَّ من المقتطف فكان ذلك اول عهدهِ بقراءة شعرهِ ونثرهِ والبحث في فلسفتهِ وافكارهِ . وكان اول اطلاعي على المقتطف في اعداد منهُ متفرقة بعضها قديم و بعضها حديث رأيت في احدها مقالاً عن المعري ومعهُ فيما اذكر مقال عن « الطائر الطنان » — فاقبلت من ذلك الوقت على هذه القراءات وفهمت منذ ذلك الحين ان العناية بالطير والتأمل في خلائق الله ليست بالعبث الذي يلام عليهِ الصغير ولا هي بالولع الفارغ الذي يستحي منهُ التلميذ المجتهد و يتوكل بهِ اهل البطالة ، وذكرت لهُ هذه اليد حين كتبت عن المعري بعد بضع عشرة سنة ادرسهُ واقابل بينهُ و بين دارون وشوبنهور ، فوجدت كثيراً من السرور في ان اكتب تلك المقالات في المقتطف صديق طفولتي القديم ، ولذَّ لي ان اعرّف امثالي من الناشئين

بالمعري على الصفحات التي عرفت منها اسمهُ وتلمست منها ذكرهُ وشعرهُ ، وان امثالي في هذه الفائدة لكثيرون بين قرّاء العربية من كل قبيل

***

رأيت صروفاً — اول مرة — في دار المقتطف والمقطم يوم ان كانت على مقربة من شارع عبد العزيز ، ودعاني الى زيارتهِ ابيات من الشعر قرأتها في رحلة لامارتين الى الشرق ينسبها الى شاعر من شعراء لبنان . فاردت ان اعرف ذلك الشاعر وان اطلع على ديوانهِ ان كان لهُ ديوان ، وخطر لي ان اسأل عنهُ اولى الناس بمعرفتهِ من علماء لبنان وادبائهِ في هذه الديار ، فقصدت دار المقتطف واستأذنت على الدكتور فالفيتهُ بين المجلات والكتب والمسودات يعيد نظرهُ في بعضها و يوقع عليها بما يراهُ ، وسألني عن مقصدي فاخبرتهُ بهِ فتبسم ، ثم تأملهُ قليلاً ونهض الى بعض الكتب يتصفحها و يقلب فهارسها ، واطال في ذلك حتى خجلت من تضييع ذلك الوقت عليهِ وصرفهِ عن عملهِ الذي كان منصرفاً اليهِ ، وهممت بالتسليم فاستمهلني قليلاً ثم اعتذر واحالني على بعض الادباء من السوريين عسى ان يكونوا على علم بصاحب تلك الابيات ، فشكرتهُ وفي نفسي اعجاب بوداعتهِ وصدق رغبتهِ في الافادة ولطف حديثهِ الذي يشفُّ عن المودة وسلامة الطوية ، ورأيتهُ بعد ذلك مرات فما تغيرت تلك الصورة التي رأيتهُ عليها اول مرة وما اختلف في منظرهِ ولا في وداعتهِ ولا في صدق ميلهِ الى العلم والمتعلمين اقل اختلاف

***

وكان هذا العالم الجليل على صراحة مأنوسة يتذاكرها عارفوهُ بالمحبة والاجلال ، فلا يدعي علم ما لا يعلم ولا يتردد في الاعتراف بما يفوتهُ علمهُ والاطلاع عليهِ . لقيتهُ على اثر انتخاب برجسون للاكاديمية الفرنسية فحادثتهُ في آراء هذا الفيلسوف والمقابلة بينهُ و بين وليام جيمس الذي يعرف عنهُ الدكتور غير قليل . فقال لي انني لم اقرأ شيئاً لبرجسون هذا . ثم ضحك وقال : أيعجبك هذا الاعتراف ممن يسمون فلاسفة !... قلت ان في هذا الاعتراف يا استاذ لشيئاً كثيراً من الفلسفة الحقيقية . قال : حسن ! ولكني اصارحك انني لا افهم هؤلاء الذين يخبطون فيما وراء الطبيعة ولا ادري لهم اولاً من آخر . فتحت كتاب ابن رشد فيما بعد الطبيعة فما تجاوزت منهُ الاسطر الاولى حتى مللت وضاق

صدري احاجيهِ ومعمياتهِ ، واقفلتهُ وما اتيت فيهِ على صفحة . انى لا اعرف كيف يفهم هـذا الكلام

على انهُ كان يضع الصراحة في مواضعها ولا يحب ان يصدم بها معتقداً او يهجم بها على شعور . وكانت سنتهُ في الكتابة ان يقرر الحقائق كما هي و يدعها تعمل عملها في النفوس والافكار . فان وافقت العقائد فذاك وان لم توافقها فالفوز بينهما للصالح الرجيح ، وسألتهُ في هذا الرأي يوماً فقال لي : انني أعرف طريقين لعبور التيار . احداهما ان تقطعهُ من شط الى شط في خط مستقيم لا تنثني امام عقبة ولا تحيد عن قوة مانعة فتصل او لا تصل ، والاخرى ان تماشي التيار حتى تصيب منهُ منفذاً الى سبيلك فانت بالغ الى غايتك من سبيل طويل ولكنهُ مأمون

وكان يحب الامثال و يحسن ان يضربها و يستشهد بها في مواطن الاستشهاد . جرى ذكر منافسة غير شريفة بين بعض الكتاب فقال رحمهُ الله : كنت ارى في صباي اطفالاً يلعبون الكرة فلاحظت ان فريقاً منهم كانوا يصدون امام اصحابهم ليسبقوهم الى التقافها، وان اطفالاً آخرين كانوا يجذبون اصحابهم الى الوراء ليمنعوهم عن الوصول اليها — قال : فهاتان وسيلتان للمنافسة احداهما تنشط بالهمة الى السبق والتقدم . والاخرى تقعد بالمرء و بمن ينافسهُ عن الوصول — والثانية واأسفاه هي الغالبة على الشرقيين

***

والذين يتابعون المقتطف يعلمون ان العالم الفقيد كان من اصحاب الوسيلة الاولى في منافسة المساجلين ومسابقة العاملين معهُ على نشر المعارف والآداب — فما اعتدى على احد منهم ولا بالغ في رد الاعتداء ، ولكنهُ كان يمضي على منهاجه في وقار الحكيم وتؤدة الحليم وثقة المطمئن الى غايتهِ العارف بما حولهُ ، فما يذكر الذاكرون لهُ الاَّ ادباً جماً وخلقاً رضيًّا وتكريماً للعلم واعراضاً عن الجاهلين، وانهُ ليمضي مبكيَّ السجايا كما مضى مبكي المعارف، و ينعاهُ النعاة اليوم وما في الشرق الاَّ لسان هاتف بالاسف عليهِ ذاكر لهُ باجمل الثناء واحسن التقدير

وعزاء المفجوعين في الفقيد — وعالم العلم والادب كلهُ مفجوع فيهِ — انهُ قدم بين يديهِ عملاً نافعاً لا ينقطع مدة ولا ينفد عدة ، وانهُ يبقيهِ بعدهُ مكفول البقاء والتقدم في امانة خلفائهِ الحريصين على ذلك الاثر الخالد الجليل ، وانهم بذلك لجديرون

البلاغ عباس محمود العقاد